المحاضرة الأولى : طبيعة البحث في الاتصال

تمهيد:

يجب التحذير بداية من صعوبة تقديم عرض حال عن تخصص الاتصال، لأنه سيكون محدود المجال ومتحيزا، فمجاله محدود لأنه ينمو بسرعة أكبر من إمكانيات الدارسين لمعالجة وهضم المعلومات الجديدة والمحافظة على تغطية شاملة لها، وهو متحيز بالضرورة لأن الدارسين يختلفون حول ما هو جيد وما هو متميز من البحوث، ونظرا لثنائية توجهات مجال البحث في الاتصال، فسيكون العرض ثنائي الطرح ومن خلال الأطروحات والأطروحات المضادة (الافتراضات الايجابية والسلبية).

1. الأطروحة الأولى: يعتبر الاتصال من أكثر المجالات الأكاديمية نموا في الثلاثين سنة الأخيرة:

يتميز الاتصال بديناميكية لا تنافسه فيها سوى قلة من التخصصات مثل المعلوماتية والتكنولوجيا الحيوية، فمؤسسات البحث في الاتصال، نجد أنه تم فتح أول تخصص جامعي للاتصال في أوربا عام 1916 -Univ of Leipzig Germany وخمسة في العشرية الموالية، مع محاولة تبنيه كتخصص رديف من طرف بعض فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية، مثل الأدب وعلم الاجتماع والتاريخ، والظاهر أن نمو هذا التخصص سيزداد في السنوات القادمة، وذلك للأسباب الستة التالية:

- الأهمية المتزايدة للمعلومات في النجاحات الفردية والاقتصادية.
- الأهمية المتزايدة للمهارات الاتصالية في العلاقات العامة التي أصبحت أكثر التخصصات نموا في مجال الاتصال.
- التزايد المستمر للوقت المخصص للتعرض لوسائل الإعلام، واستخدام الميديا الاجتماعية.

- وكنتيجة لذلك، التزايد المستمر لاعتبار وسائل الإعلام مصدرا أساسيا لإدراك الواقع (السياسي خاصة).
- تحول تزايد الترابط بين النظام الإعلامي وباقي الأنظمة الاجتماعية وخاصة السياسية منها، إلى وسيلة للسلطة السياسية.
- أهمية تخصص الاتصال عند الحديث عن أهمية تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية في نوعية التواصل الجماهيري والخاص.

2. الأطروحة المضادة الأولى: الاتصال تخصص عاجز ذاتيا بل فاقد للهوية

عادة ما يتميز أي تخصص أكاديمي ببعض الانسجام في مواضيع دراساته وفي نظرياته، فمثلا نعرف جميعا أن الفيزياء تخصص واضح المعالم وأن موضوعها هو الطبيعة ونظرياتها تبنى واحدة فوق الأخرى (نظرية نسبية أنشتاين على نظرية ميكانيكا نيوتن...) ولا يوجد جدل كبير حول ماهية النظريات التي تنتمي إليها.

بينما يوجد عندنا جدل كبير حول اعتبار الاتصال تخصصا أم مجالا، وحول كونه موضوعا محددا أم واسعا جدا، فكل شيء في الحياة يتضمن الاتصال، ومع ذلك هناك من يرى بأن ليس كل ما له علاقة بوسائل الاتصال يعتبر بحثا في الاتصال، فمثلا يعتبر البحث في التشوهات النفسية الناتجة عن التعرض لبرامج إعلامية عنيفة بحثا نفسيا، والبحث في أسباب احتكار وسائل الإعلام بحثا اقتصاديا...وليست بحوث اتصالية.

إن أزمة الهوية هذه رافقت كل المسار الأكاديمي للباحثين في الاتصال، فعند المطالبة بمأسسة الاتصال (المسمى في مطلع الثلاثينيات في ألمانيا بالبحوث الصحافية) إلى جانب علم الاجتماع في النظام الأكاديمي الألماني، رفض رئيس جمعية علماء الاجتماع الألمان إدماجه بحجة تهكمية مقارنة مفادها:" عدم حاجتنا لعلم الدجاج أو البط داخل البيولوجيا..."

وكان الرد دائما بان الاتصال هو في الوقت نفسه علم " إدماجي" (Integrative)، تجميعي (Synoptical) أو على حد تعبير "ليتلجون" هو " متعدد التخصصات"، مع العلم أن هناك فروقا طفيفة بين المصطلحات الثلاثة: فهو إدماجي لإتاحته استعمال نظريات أو مناهج أي تخصص لديه ما يفيد في وصف موضوعه الاتصالي، وهو تجميعي لاستعماله معارف عدة تخصصات، وهو متعدد التخصصات لقيامه بالأمرين معا.

لكن استعمالنا لأي من المصطلحات الثلاثة لا يحل المشكلة كون هوية تخصصنا غير واضحة المعالم، فأقسام التخصص تحمل أسماء مختلفة حتى داخل البلد الواحد، ويقوم الفاعلون فيها بأشياء مختلفة. نعم، من المؤكد أننا نعالج ظواهر اتصالية ولكننا نفعل ذلك في ظروف وسياقات مختلفة جدا، فالموضوعات مختلفة وإن أشرفت عليها أقسام تحمل الاسم نفسه.

كما أنه عادة ما تكون لأي تخصص علمي مجموعة من النظريات المشتركة، وذلك بخلاف تخصصنا، الذي يفتقد ذلك حتى عندما نقوم بدراسة الموضوعات نفسها، لأننا استفدنا دائما من المداخل النظرية لتخصصات أخرى. وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا الأمر ايجابي، لأنه من الناحية النظرية يمكن إدماج أحسن النظريات والمناهج لوصفها موضوعنا، وكان يأتي ذلك بداية من علماء الاقتصاد والتاريخ ثم أتت الموجة الثانية من علماء النفس والتخصصات الأخرى (لازارسفيلد، هوفلاند..)، ثم أتت مقاربات علماء الاجتماع المهتمين بالثقافة مثل " هابرماس" و " بورديو" و"غتلين".

فقد أحصى "كرايغ" سبعة تقاليد أكاديمية في نظريات الاتصال تقوم بالتنظير للاتصال بطرق مختلفة: البلاغة، السيميائية، الظاهراتية، السيبرنتيكية، علم النفس الاجتماعية، علم الاجتماع الثقافي وعلم

الاجتماع النقدي. بينما نجد أن لعلوم الطبيعة تقليدا نظريا واحدا، ولعلم النفس اثنين (السلوكية والتحليل النفسي) ونحن لدينا سبعة أو أكثر.

وبالعودة إلى الحديث عن الطبيعة التعددية لعلم الاتصال، فقد كانت هناك عدة محاولات إدماجية، تمثلت إحداها في محاولة "بينغر" عام 1993 والذي عرف التخصص بالسينات الأربعة: المعرفة، الثقافة، الضبط والاتصال. وهو تصنيف عام وذو حدود غامضة قد تسمح له بأن يشمل أي نوع من أنواع البحوث المتعلقة بالإنسان، ولا يصلح كمصدر لتمييز هوية تخصص واحد.

إن تحقيق هوية أو انسجام أي تخصص مهم لأسباب داخلية وخارجية: خارجيا، من المهم تبرير وجود ونمو التخصص عند مناقشة تمويل مشاريع الاستقلالية الإدارية والتعليم والبحث، فأقسامنا عادة ما تتنافس مع أقسام علم الاجتماع، العلوم السياسية أو اللسانية من أجل المحافظة على كيان تكويني مستقل للطلبة وهوية علمية متميزة. أما داخليا، فالانسجام والهوية مهمان بالنسبة للوظيفة العلمية للتخصص والتي تتمثل في التراكم المعرفي المعترف به.

3. الأطروحة الثانية: تراكم أعداد كبيرة من الحقائق الامبريقية حول عملية الاتصال:

الامبريقية تعني أساسا الخصائص التالية:

- تحقيق معارف ذاتية.
- وصف وتفسير السلوك الإنساني.
- من خلال بعض المناهج العلمية.
- ترك الواقع يقرر مصير الفرضيات.

وهذا المعنى يقوم على افتراضين:

- أن إنتاج المعرفة الذاتية المعترف بها يعتبر أكثر العوامل الحاسمة في الفصل بين العلوم وبين باقي الأنظمة الاجتماعية، مثل: الصحافة، السياسة أو الأدب.
- أن البشر بالرغم من اختلافهم عن مواضيع العلوم الأخرى، يمكن دراستهم بنفس المنهجية المعتمدة على نفس الابستمولوجيا، على غرار مواضيع الفيزياء والكيمياء.

وبالمناسبة، فإن هذين الافتراضين كانا يواجهان منذ عصر التنوير الأوربي معارضة قوية من الفكر الكنسي ومن التخصصات التقليدية التي رأت أن تطبيق هذه القوانين على السلوك الإنساني سيحد من حرية تصرف الأفراد حسب طبيعتهم أو رغبتهم، وبالتالي سيتعارض مع مصلحتهم، واستمرت هذه المواجهة وازدادت قوة عندما تطورت العلوم الاجتماعية: أولا علم النفس التجريبي ولاحقا علم الاجتماع. إن ما يسمى بالجدل حول الوضعية – الذي قاده "كارل بوبر" باسم العقلانية النقدية و " أدرنو" و"هابرماس" باسم النظرية النقدية- كان يعتبر أبرز المعالم الابستمولوجية.

فنحن نعرف بالضبط كم يلزم من المدخلات لوسائل الإعلام لإقرار موضوع سياسي جديد ضمن أجندتها العامة، وحتى كم يلزم من المقالات والتقارير التلفزيونية لرفع الوعي العام من حيث عدد النقاط بالنسب المئوية (وفقا لأبحاث "رسل نيومان": عشرة مقالات في صحيفة نيويورك تايمز أو أي مجلة إخبارية ترفعه بنسبة 0.3 % إلى 0.9 %). ونحن نعرف أيضا قوة تأثير الصور على الإدراك الحسي للناس أو على تهييج عاطفتهم، بالمقارنة مع النص المكتوب (وفقا لبحث أجراه "دولف زلمان" وآخرون، يمكن للصور أن تدير إدراكنا للقضايا والأشخاص بغض النظر عن النص المرافق لها)، ونحن نعرف أيضا أن كمية التباين الموجودة في عملية اتخاذ القرارات الإخبارية للصحافيين تفسرها عوامل إخبارية شبه موضوعية أو معتقداتهم الشخصية،

إنها تبلغ حوالي مقدار الثلث لكل منهما، هذه ليست سوى أمثلة قليلة (من مجال عملي) تبين كيف طورنا جسما صلبا من المعرفة ببناء أبحاث جديدة على الدراسات الموجودة، وتعزز عمق معالجتنا لعمليات الاتصال.

4. الأطروحة المضادة الثانية: يعاني المجال بشكل متزايد من التآكل المعرفي

للاتصال مشكلة بسيطة جدا: إن قرب موضوعه من واقع جميع الناس وتجربتهم يجعل هؤلاء ينصبون أنفسهم بأنفسهم " خبراء"، يقول أحدهم،" لأنني أشاهد التلفزيون كثيرا "سواء كسياسي،خطيب،طبيب،أو مجرد أب"، لدي على الأقل الكثير لأقوله كباحث في هذا المجال". وهذه المشكلة لا تنطبق على الفيزيائي أو طبيب الأعصاب. لكنها تحدث لنا، وأحيانا تجعل من الصعب الدفاع عن البحث ضد الحكمة العامة أو رغبات الأطراف المعنية بالظاهرة المدروسة.

ومع ذلك، فالتآكل المعرفي من الداخل، هو أشد لأن عواقب أساسية أكثر وعلى مدى أطول، فالمناقشات المعرفية حول طبيعة الطريق الحقيقي المؤدي إلى المعرفة العلمية سايرت الحقل منذ بدايته. حيث كان "أدورنو" أول من انتقد الامبريقي "لازارسفيلد" وما أسماه بالبحوث الإدارية وواجه هذه البحوث "الموجهة مؤسستيا والقمعية" – على حد قوله – بـ" البحوث النقدية". رد " لازارسفيلد" بعد بضع سنوات بـ"ملاحظات حول بحوث الاتصال الإدارية والنقدية"، والتي أظهر فيها أن البحوث الامبريقية يمكن بالطبع أن تكون نقدية، وربما أكثر نقدية من البحوث غير الامبريقية، إذا استعملت بيانات صحيحة ومقنعة، ولكن النقطة الرئيسية لـ"لازارسفيلد" كانت تكمن في تأكيده على عدم وجود بديل للتفاعلات الذاتية.

رأى عالم الاجتماع الألماني"نيكلاس لومان" بأن الوظيفة الاجتماعية للعلم تكمن في تحديد المعايير التي تفصل التأكيدات العلمية عن التأكيدات التي

وردت في سياقات أخرى ولأغراض أخرى، وبالتالي، فالتنوع في حد ذاته لا قيمة له في العلم. إن العلوم (ومنها العلوم الاجتماعية) موجودة لأن المجتمع يتوقع منها القرارات التي تحدد أي من النظريات هي مقبولة وأيها غير مقبولة، ويبدو هذا واضحا وجميلا بالنسبة للعلوم الطبيعية ومعظم علم النفس، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لمعظم العلوم الاجتماعية، بما في ذلك علوم الاتصال.

وحدد "ستيفن ليتلجون" في مقالته " نظرة عامة حول مساهمات التخصصات الأخرى في نظرية التواصل الإنساني " عشر قضايا للنقاش المعرفي، والتي من أهمها أربعة هي:

- إلى أي مدى يكون الواقع عالميا؟ أي هل الواقع مطلق ويمكن اكتشافه، أم أنه ناتج عن تأويلات إنسانية؟
- هل موضع الواقع خارج الأشخاص أم هو عبارة عن تجارب شخصية؟
- يمكن ملاحظة البشر من قبل نفس العمليات العلمية كغيرهم من الأشياء؟
- هل تنشأ المعرفة العلمية من التجربة الحسية، أم هي عبارة عن بناءات شخصية، ناتجة عن تفاعل بين العارف والمعروف؟

إن التعددية والتنوع هما بشكل عام قيمتان كبيرتان، فإنهما لا ينبغي أن يؤديا إلى ثقافة" كل شيء مباح" في العلوم. بالطبع، يجب أن يكون هناك منافسة بين المناهج، ولكن في مرحلة ما يجب أن نعترف بمحك الواقع. هذا يعبر، في جميع التخصصات، عن امكانية فرضيات تكرار الأدلة من جهة وللتوقعات من جهة أخرى، إن البحث في الاتصال، مثل أي بحث في أي تخصص آخر، يستفيد من النماذج والمعايير، التي هي أساس المعرفة التي يمكن قبولها بغض النظر عن استعداد الباحث.

أسئلة للتقويم الذاتي:

- ❖ إلى أي مدى يمكن اعتبار علوم الإعلام والاتصال علما مستقلا بحد ذاته؟
- ❖ لماذا توصف علوم الاتصال بـ" العلوم" ولا نصفها بالعلم؟
- ❖ ما هي أهم الانتقادات التي وجهت للطرح الامبريقي للبحث في الاتصال؟